المورد

عدد خاص
أبو الطيب المتنبي

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد السادس - العدد الثالث ١٣٩٧ - ١٩٧٧

أثر الأخفاق في شعر المتنبي

بقلم
صبيح صادق
بغداد ـ الجمهورية العراقية

الف سنة تمر ولايزال المتنبي يملأ الدنيا ، ويشغل الناس ... !

وليس هناك من شاعر تأثر بالاحداث التي عاصرها ، وصورها ، واثرت عليه مثلما حصل للمتنبي ... فقد تأثر بالاحداث التي هزته تأثرا كبيرا حتى تجلى ذلك واضحاً في شعره ..

وفي هذا البحث ندرس التطور الشعري لديه من خلال اثر الانتكاسات عليه .. ويمكننا القول ان اهم المؤثرات في حياة المتنبي واهم الحوادث التي اثرت في نفسيته وشعره هي سجنه ووفاة جدته وعلاقته مع سيف الدولة ثم انفصاله عنه ، وعلاقته مع كافور ثم انفصاله عنه .

ويمكن اعتبار الحقبة التي عاشها المتنبي مع سيف الدولة هي الحقبة الفاصلة الرئيسية في اخفاقه . فقبل علاقته بسيف الدولة كانت انتكاساته اقل من طموحه الكبير ولهذا فان اثر سجنه او وفاة جدته اقل اثراً من فراقه لسيف الدولة . اما فراقه لكافور فلم يكن الا محصلة نهائية لجميع الاخفاقات السابقة .

ولهذا نستطيع ان نتلمس عدة مراحل مر بها المتنبي تبعاً لأثر الاخفاق والاحداث في شعره وتلك هي :

(١) الحقبة التي عاشها قبل علاقته بسيف الدولة .
(٢) الحقبة التي عاشها مع سيف الدولة .
(٣) الحقبة التي عاشها مع كافور .
(٤) الحقبة التي عاشها بعد كافور .

ومن الطبيعي ان تقسيمنا لهذه الحقب ليس معناه التقيد الزمني الصارم بها ، ولكن سميناها بهذا الاسم حتى تتبين ملامح أثر الاخفاق في شعره في كل حقبة عاشها المتنبي .

ولكي لا نخوض في مقدمات جانبية فسيكون دخولنا للموضوع مباشراً مفترضين بالقارىء الالمام بحياة المتنبي وتقلباتها وعلاقتهمع الشخصيات المهمة في حياته مثل جدته وسيف الدولة وكافور وغيرهم ..

وملاحظة اخيرة نذكرها ان الابيات الشعرية الواردة في هذا البحث مستمدة من طبعه ديوان المتنبي بشرح عبدالرحمن البرقوقي . (ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت) .

المتنبي قبل سيف الدولة

تتميز هذه الحقبة بكونها من الحقب النشطة لدى المتنبي طموحاً وهمةً وتحدياً وفخراً ... واهم مايلاحظ في هذه الحقبة التي تسبق اخفاقه هي الاعتزاز بالنفس الذي يصل الى حد الغرور ، ولهذا فهو من السهل عليه ان يتحدى الامراء والملوك . ولكن صيغة تحديه كانت بعيدة عن التجربة او التحقيق الفعلي لها . فهو عندما يساله احدهم: لماذا ترك لقاء الملوك ؟ يجيب بصيغة المستقبل انه سيستعمل القوة فهي العلاج الوحيد لازالة الحجاب بينه وبينهم :

ابا سعيدٍ جنب العتابا
فرب رأي خطأٍ صوابا
فإنهم قد اكثروا الحجّابا
واستوقفوا لِردّنا البوّابا
وانّ حد الصارم القرضابا
والذّابلات السمر والعرابا
يرفع فيما بيننا الحجابا(١)

(١) شرح ديوان المتنبي : عبدالرحمن البرقوقي : /ص٢٢٣ ج١/

وواضح من هذه المقطوعة انه يعنف ابا سعيد لانه يعتب عليه لعدم مدحه الملوك وهو في الوقت ذاته يتوعدهم ، اي ان تحديه لهم سيكون مستقبلاً ..

وتعرض كذلك لهجائهم حيث اعتبرهم ارانب ..

ارانبٌ غير انهم ملوكٌ
مفتحةٌ عيونهمُ نيامُ(٢)

وهذا النقد المر للملوك يعكس شعور المتنبي المتعالي الذي اعتبر فيه الملوك كانهم ارانب وذلك لانه يرى فعلاً امامه ملوكاً لا يستحقون مناصبهم اولاً ، ولما كان يرى في نفسه من علو وكبرياء وعظمة ثانياً ..

ومن هنا نرى ان المتنبي كان يؤمن بمبدا القوة منذ صباه . وسيلازمه هذا المبدأ حتى نهاية حياته على الرغم من بعض التغيرات التي طرأت عليه .. كما سيمر بنا .

وهو منذ صباه سيء الظن بالناس لهذا لا يتورع عن وصفهم كانهم الغنم !!

ارى الناسَ ومحصولي على غنمٍ
وذكر جودٍ ومحصولي على الكلم(٣)

ويتبين من هذا البيت سوء ظن المتنبي بالناس . فالناس عنده كالغنم ومعنى هذا انه يعيش في مجتمع لا يعترف به هو اصلاً ، وانه ارقى من الناس ، وهو يتقدمهم لكلامهم الكثير دون التطبيق الفعلي ، اي انه ينتقد عادات عصره المتميزة بكثرة الكلام وقلة التطبيق ...

وهؤلاء الناس لا ينفع معهم غير القوة :

ومن عرف الايام معرفتي بها
وبالناس روّى رمحهُ غير راحمٍ
فليس بمرحومٍ إذا ظفروا به
ولا في الرّدى الجاري عليهم بآثم(٤)

ان المتنبي يعتبر نفسه قد عرف الناس على حقيقتهم اذن فعليه ان يكون متحفزاً للحرب والهجوم والقتال لانه رآهم لا رحمة لهم ولاشفقة فكل مايفكرون به هو استغلال الآخرين واستلابهم ، اي انه باختصار يؤمن بمبدأ حرب كل انسان على كل انسان .

وتتبين النظرة المثالية والفكرة النظرية عند المتنبي في هذه الحقبة حينما يتمنى لو ان اهل الارض قليلون ، لكن شريطة ان يكونوا كاملين ...

ودهرٌ ناسه ناسٌ صغارُ
وان كانت لهم جثثٌ ضخامُ
وما انا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغامُ
. . . . . .
. . . . . .
فهلاّ كان نقص الاهل فيها
وكان لأهلها منها التّمامُ(٥)

يؤكد المتنبي هنا نظرته السابقة في احتقار الناس وفي اعتبار نفسه اعظم منهم بوصف نفسه كالذهب في التراب . ولكنه يضيف شيئاً مهماً هو دعوته الى مجتمع فاضل تكون اخلاقه كاملة فيتمنى لو ان الناس اقل ، ولكن اخلاقهم كاملة . وهذا يعني اولاً انه يرى اناس عصره ناقصين . وثانياً انه يطمح الى ان يكون هناك مجتمع فاضل كامل حتى لو كان قليل الناس .

وكان المتنبي يرى ان هذه الحياة لا تنصف ، ذلك ان كثيرين دونه في العلم والطموح افضل منه حظاً وجاهاً ولهذا فهو يعتبر الدهر مسؤولاً عما يصيبه من نكسات :

ضاق صدري وطال في طلب الرّزْ
قِ قيامي وقلّ عنه قعودي
ابداً اقطعُ البلاد ونجمي
في نحوسٍ وهمّتي في سعود(٦)

وقد يلمح منه انه شعر نتيجة للاخفاق ، ولكنا لا نرجح ذلك لانه قال هذين البيتين في صباه ، ولعله نتيجة لمشكلة بسيطة تعرض لها . ذلك ان المتنبي بما عرف عنه من حساسيه ان اعتبر كثيراً من الحوادث بمثابة كارثة عليه . ولكنها تدل على انه طموح منذ صباه فهو يريد الحصول على اعلى المناصب وهو لايزال اصغر منها سناً ..

بل هو متشائم تجاه هذه الدنيا :

ولا اظنّ بنات الدهر تتركني
حتى تشدّ عليها طرقها همي
لمِ الليالي التي اخنت على جدتي
برقة الحال واعذرني ولا تلمِ(٧)

---

(٢) المصدر نفسه : /ص١٩١/ج٤
(٣) شرح ديوان المتنبي : /ص١٥٦/ج٤
(٤) المصدر نفسه : ص٢٢٨/ج٤
(٥) المصدر نفسه : ص١٩٠-١٩٥/ج٤
(٦) المصدر نفسه ص٤٤-٤٥/ج٢
(٧) المصدر نفسه : ص١٥٦/ج٤ - راجع شرحه في نهاية البحث .

والمتنبي هنا يسلم تسليماً قاطعاً بأن حوادث الدهر لابد ان تصيبه ويبرز غروره مرة اخرى حينما لا يعترف بانه قد يخطىء وانما يلوم الدنيا. فهو يقول لصاحبه لا تلمني على عدم تحقيقي الاماني انما لم الدنيا ..! وهو في كل ذلك لا يريد ان يلقي اية تبعة على نفسه ..

والمتنبي مع نظرته هذه للدنيا فهو لا يتراجع امامها بل يتحداها :

كذا انا يادنيا إذا شئتِ فاذهبي
ويانفسُ زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تعزُّني
ولا صحبتني مهجةٌ تقبلُ الظلما(٨)

ومع كون هذين البيتين يمثلان احدى فورات المتنبي ـ بعد وفاة جدته ـ فهي تمثل حقيقة نفسيته في تحديه للدنيا وكرهه لها منذ صباه وحتى وفاته في جميع مراحل شعره . وكان افتخاره بنفسه قد جعل منه ان يعتقد بانه سينفذ كل ما يطمح اليه وكل مايريد . وكان له طموح غير اعتيادي فقد اعتبر نفسه المنقذ للناس والبشرية، فلا عجب ان نراه يعتقد بانه أعلى من اي انسان ، ولكن هؤلاء الناس لا يقدرون موهبته فهو كالمسيح بين اليهود او صالح في ثمود ..!!

ما مقامي بأرضِ نخلةَ إلاّ
كمقام المسيحِ بين اليهودِ(٩)

ان شخصاً يقارن نفسه بالمسيح بين اليهود بهذه السهولة وبهذه السرعة انما ينم عن شخصية فريدة حقاً . ولشخصية تشعر باعتزاز كبير بكيانها وطموحها ، بل ان قوله :

انا في أمةٍ تداركها اللـ
ـه غريبٌ كصالح في ثمودِ(١٠)

انما يدل على ان هذا الشعور كان سائداً وحقيقياً لديه ، وليس من قبيل المصادفة فهو حينما يمثل كصالح في ثمود ليس فقط يفخر بنفسه بل وينتقد الناس في مجتمعه كذلك ..

لكن المتنبي يصل الى درجة الافتخار المستكره حينما يقول :

ضاق ذرعاً بأن اضيق به ذر
عآ زماني واستكرمتني الكرامُ

واقفاً تحت اخمصَيْ قدْر نفسي
واقفاً تحت اخْمَصَيْ الانامُ(١١)

فهو يعتبر الناس تحت اخمص قدميه ، وهذه نظرة متعالية لدرجة ممقوته وهي توضح مدى الغرور الذي وصل اليه المتنبي ، ومدى الافتخار الذي كان يفخر به وهذا سيعيننا في تفسير الكثير من الصدمات التي تعرض لها او المشاكل التي واجهها . ان نفسية كهذه ، لابد انها ستعتبر كل حركةٍ مشكلة ، وكل عثرة صدمة...!

٢ ـ الحقبة الثانية

وهي الحقبة الممتدة بين لقائه سيف الدولة حتى فراقه له ... وستظهر في هذه الحقبة بعض الآثار للانتكاسات التي انتكسها في الحقبة الاولى من مثل ثورته ، وسجنه ووفاة جدته وحتى عند سيف الدولة ... وكما وضحنا سابقاً اننا لا نقصد بها التقيد الصارم بالسنوات وانما حقبة تقريبية لا غير . وفي هذه الحقبة نلحظ شيئاً جديداً في شعره ، ذلك هو (افتخاره بشعره) ، يقول المتنبي :

انا الذي نظر الأعمى إلى ادبي
واسمعت كلماتي من به صممُ
انامُ مِلء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلقُ جرّاها ويختصم(١٢)

ان هذا الفخر المتعالي بشعره لم يكن إلا نتيجة شيئين ، الاول انعكاس واضح لفخره بنفسه واعتزازه الشديد بها ، والثاني اظهار نفسه بمظهر الشاعر العظيم ، او الشخص العظيم امام سيف الدولة .. فهو لم يكتف بان فخر بشعره بل وطلب من سيف الدولة ان لا يستمع لغيره :

وما الدهر إلاّ من رواة قلائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
ودع كلَّ صوتٍ غير صوتي فإنني
أنا الصائح المحكيُّ والآخرُ الصدى(١٣)

ويعبر المتنبي هنا عن حب كامن لسيف الدولة . فهو (يغار) من الذين يمتدحونه ويريد هو وحده الاستئثار بهذا المدح لهذا فهو يفخر بشعره ويطلب من سيف الدولة ان لا يهتم للآخرين. ولا نرجح ان مدحه لسيف الدولة كان لأجل المال

(٨) المصدر نفسه ص٢٣٥/ج٤ . راجع شرحهما في نهاية البحث .
(٩) المصدر نفسه : ص٤٤/ج٢ .
(١٠) المصدر نفسه : ص٤٨/ج٢ .
(١١) شرح الديوان ص٢١٧ـ٢١٨/ج٤ . راجع شرحهما في نهاية البحث .
(١٢) شرح الديوان ص٨٢ـ٨٤ /ج٤ .
(١٣) شرح الديوان : ص ١٤ـ١٥/ج٢ .

فقط وانما كان تعبيراً عن اعجاب حقيقي وحب صادق له ...

والآن لماذا كان على المتنبي ان يفخر بشعره ؟! ان هذا هو اول اثر للاخفاق في شعره ذلك انه ما كان يفخر بشعره لولا شعوره بالاخفاق ...اضف الى ذلك المنافسة بينه وبين الشعراء الآخرين ..

ان الفخر بشعره كان الملاذ الذي التجأ اليه المتنبي كي يخفف من اثر الاخفاق الذي تعرض له قبل فراقه سيف الدولة وذلك كي يبين امام الآخرين انه الشخصية التي يشار اليها بالبنان . وقد تكون هناك من الاسباب التي تساعد في ذلك، ولكن للاخفاق الاثر الكبير فيها .

اما بالنسبة لفخره بنفسه وشجاعته فلا يمكننا اعتبارها اثراً للاخفاق ذلك ان خط الفخر امتد على اتجاه واحد وقوة واحدة قبل سيف الدولة وبعده ...

ومن الآثار التي تركها الاخفاق في شعر المتنبي هو زيادة النظرة المتشائمة التي اخذت تطغي عليه . فكان ان نظر الى ماتعارف عليه الناس من حسن وجيد وسعيد ... واعتبره قبيحاً وسيئاً وتعساً ، وهذه نظرة جديدة لحقت شعر المتنبي في هذه الحقبة . وما كانت موجودة في شعره قبل ذلك .

فالموت هو في الحقيقة قتل ..! والولد المحبوب عله ...! والحسناء اذى ..!

إذا ما تأملت الزمان وصرفه
تيقنت ان الموت ضربٌ من القتلِ
هل الولدُ المحبوبُ إلاّ تعلّةٌ
وهل خلوة الحسناءِ إلاّ اذى البعلِ(١٤)

وهنا يعتبر المتنبي الموت ضرباً من القتل ، ومعنى هذا ان نظرته واضحة التشاؤم ، اما اعتباره الولد علة من العلل فهو غاية التشاؤم ، ولعله اثر من آثار نظرته العامة للحياة التي لاترى في هذه الدنيا شيئاً حسناً . اما اعتباره الخلوة مع الحسناء اذى للزوج فهو ليس في غاية التشاؤم بل انها النظرة سوداويه عجيبة ما كان ليحملها إلا ابو العلاء المعري واضرابه ..

ولا شك ان نظرة المتنبي هذه لم تكن إلا نتيجة للانتكاسات التي تعرض لها في الحقبة الاولى من حياته قبل سيف الدولة او حتى في عصر سيف الدولة ... وسوف يتطور هذا التشاؤم الى انتقاد للمنجزات الانسانية كلها على عهد كافور ...

ولاول مرة يشعر المتنبي بالوحدة ...

وحيدٌ من الخلان في كلّ بلدةٍ
إذا عظم المطلوبُ قلّ المساعدُ(١٥)

وهذه الوحدة نتيجة واضحة للاخفاق الذي تعرض له .. فبعد الاخفاق يشعر المرء عادة وكأنه وحيد حتى لو لم يكن وحيداً فعلاً .

وفي هذه الحقبة كذلك ظهر ما يمكن ان نسميه بالموعظة المأساوية . ذلك ان هذا النوع من المواعظ متشائم للغاية ولا يتعرض إلا للجانب السيء من الحياة ... ويظهر الالم النفسي الذي يعانيه المتنبي في احدى حكمه التي عبر فيها عن لوعة حقيقية :

فربّ كئيبٍ ليس تندى جفونه
وربّ كثير الدمعِ غير كئيبِ(١٦)

فهو كئيب لكنه لا يستسلم لعواطفه وانفعالاته . ولا يقصد بالكئيب الذي لاتندى جفونه غير نفسه لهذا فهو يكبت هذا الشعور في داخله... وهو بعد ذلك اثر من آثار احدى النكسات فيه ..

ونحن الذين ندفن موتانا ، ونحن ندوس عليهم ..! وكم من عين كانت تقبل قبل ذلك هي الآن مكحولة بالرمال :

يدفن بعضنا بعضاً وتمشي
أواخرنا على هام الأوالي
وكم عينٍ مقبّلة النواحي
كحيلٌ بالجنادل والرمالِ(١٧)

وهذا لا شك نتيجة لاخفاقه الذي جعله ينظر هذه النظرة المأساوية للحياة .

٣ ـ الحقبة الثالثة :

وهي الحقبة الممتدة من لقائه كافورا حتى فراقه له .. وفي هذه الحقبة تظهر آثار الانتكاسات التي تعرض لها خلال حياته مع سيف الدولة والتي كان اخطرها واهمها في حياته هي قطع علاقته معه ...

في هذه الحقبة نلحظ التبدل الآخر على شعر المتنبي حيث ظهرت روح الشكوى عنده من سيف الدولة خاصة والاصدقاء عامة ..

(١٤) شرح الديوان ص١٧٧ ـ ١٧٨ /ج٣ ـ راجع شرحه في نهاية البحث .

(١٥) شرح الديوان ص٣٩٢/ج١ .
(١٦) شرح الديوان ص ١٧٩/ج١ .
(١٧) شرح الديوان ص.١٥/ج٣ .

ولقد كان اتصاله بسيف الدولة حدثاً كبيراً في حياته ، لانه كان قد علق عليه الكثير من الآمال فكانت نفسيته الطموحة قد وجدت ضالتها فيه . واعتزازه وافتخاره بنفسه قد وجدا الارض الخصبة للنمو ، اي انه باختصار ان سيف الدولة كان يشبع روح الغرور عند المتنبي اضف الى ذلك تعلقه بسيف الدولة بعلاقة حب كبيرة جعل منه ان يتغنى به وكأنه حبيبه :

مالي اكتمُ حباً قد برى جسدي
وتدَّعي حب سيف الدولة الأمم(١٨)

ولكن هذا الحب تعرض للتصدع حينما تلكأ سيف الدولة عن مناصرته بعد تعرضه للاهانة أمامه . لهذا اضطر الى مغادرته ، فكانت صدمة حقيقية عليه ، فسيف الدولة اولاً كان محط آماله. وثانياً كان الحبيب الروحي له .

ولقد كان أثر اخفاقه شديداً جداً حتى انه عرَّض بسيف الدولة وهو الذي يعتبره حبيبه الحقيقي ، وهذا بلا شك نتيجة للانتكاسة التي تعرض لها في علاقته معه . فهو حينما يخاطب قلبه، يقول له : لا تحب سيف الدولة ذلك انه كان غدارا، ومع علمي بشوقك اليه فاني ساتبرأ منك اذا أحببته :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى
وقد كان غداراً فكن أنت وافيا
وأعلم أن البين يشكيك بعده
فلست فؤادي إن رأيتك شاكيا(١٩)

ويظهر الأسى واضحاً من جراء عمل سيف الدولة الذي يعجز عن رده :

فلو كان مابي من حبيبٍ مقنَّعٍ
عذرت ولكن من حبيبٍ معمَّمٍ(٢٠)

بالاضافة الى ذلك اصبحت قلة الأصدقاء وانعدامهم سمة له. وهي نتيجة طبيعية لما لاقاه من نكبات على يد الاصدقاء :

وما الخيلُ إلاَّ كالصَّديقِ قليلةٌ
وإن كثرت في عين من لايجرِّبُ(٢١)

وهذا أثر واضح من آثار اخفاق المتنبي الذي لم يجد من الاصدقاء من يناصره او يقف الى جانبه. بل واصبح يشك فيمن يتخذ من الاصدقاء :

وصرتُ اشكُّ فيمن اصطفيهِ
لعلمي أنَّهُ بعض الأنامِ(٢٢)

وشك المتنبي فيمن يتخذه من الاصدقاء اشارة غير مباشرة لسيف الدولة الذي صدمه بجفائه عنه وهو اثر من آثار اخفاقه في علاقاته الشخصية .

ومن جهة اخرى تمنى المتنبي (الموت) ،وهذا التمني هو أخطر تحول في شعره لانه للمرة الاولى التي يتمنى فيها موتاً طبيعياً وليس موتاً عن طريق القتال .. وهو شعور راوده لكونه الحل الوحيد لما يعانيه من ازمة نفسية حادة بعد انهيار آماله وتوجهها نحو شخص لا يؤمن به . والآن ، فالموت هو امنية المتنبي ، هذا الذي حمل العالم يوما ما واعتبر نفسه مسؤولاً عنه :

كفى بك داءً ان ترى الموتَ شافيا
وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا(٢٣)

ان تمنيه الموت ليس شيئاً اعتيادياً بالنسبة له وهذا يبين ان الاخفاق الذي تعرض له كان من الحدة ان فقد فيه كل الآمال .. بل انها لتبين المدى الذي وصلته علاقته مع سيف الدولة ومدى الاخفاق الذي اصابه بعد فراقه له .

وبالرغم من ايمان المتنبي بالقوة . وهو المبدأ الذي بقي على ما كان عليه فإنه قد طرأ عليه شيء جديد وهو دعوته الى القوة من خلال الحكمة لامن خلال تجربته الشخصية وهذا يدل على هبوط روح القتال او المجازفة عنده ، فهو يلوم من يتوفر له الطريق والشباب ولا يحاول الصمود ويحقق الآمال وكأنه يتكلم عن تجربة عامة او انه ينصح الآخرين ..

عجبت لمن لهُ قدٌ وحدٌ
وينبوُ نبوة القضمِ الكهامِ
ومن يجد الطريق إلى المعالي
فلا يذرُ المطيَّ بلا سنامِ(٢٤)

وهنا المتنبي لايقول أنا الذي املك الحقد والحد وانا سوف اصعد الى المعالي بل (الذي يجد ذلك)

---

(١٨) شرح الديوان : ص٨١/ج٤ . قال هذا البيت في الحقبة الثانية اثناء علاقته الوطيدة مع سيف الدولة .
(١٩) شرح الديوان ص٤١٨/ج٤ . راجع شرحهما في نهاية البحث .
(٢٠) شرح الديوان : ص٢٦٤/ج٤ .
(٢١) شرح الديوان : ص٢٠٤/ج١ .
(٢٢) شرح الديوان : ص٢٧٤/ج٤ .
(٢٣) شرح الديوان : ص٤١٧/ج٤ ـ راجع شرحه في نهاية البحث .
(٢٤) شرح الديوان ص٢٧٥/ج٤ ـ راجع شرحه في نهاية البحث .

فهو أولاً يعني ان آخرين غيره يملكون ذلك وهو ثانياً لا يتكلم عن تجربة شخصية في القوة بل عن حكمة عابرة .

والمجد لا يدركه إلا السيد الفطن :

لا يدرك المجد إلا سيد فطن
لما يشق على السادات فعال(٢٥)

وهو هنا لا يقول انا السيد الفطن وانا الفعال ... بل ان المجد لا يدركه إلا هؤلاء . وهذا اعتراف ضمني (بالخسارة) . اي ان المتنبي اعترف اخيراً بان اقوياء غيره قد وصلوا المجد ، اما اين هو ؟ فهذا ما يخفيه السكوت . ويبدو ان لكثرة ماافتخر بنفسه ولم يتحقق شيء منه نتيجة اخفاقات عديدة انعطف في حماسته للقوة الى القوة من خلال الحكمة . اضف الى ذلك التجربة الشخصية التي مربها خلال هذه السنين الطويلة التي اكسبته تجربة كبيرة ..

وهناك ملاحظة مهمة هي ان فكرة القوة وان كانت لاتزال مبداه إلا انها قد بدأت بالبرود . فهو يتساءل او يتردد هل يرمي بنفسه في الحرب ؟ ! (فربما) يشفي غليله ...

وهل ارمي هواي براقصاتٍ
منحلاةِ المقادِ بالتلغامِ
فربّتما شفيتُ غليل صدري
بسيرٍ او قناةٍ او حسامِ(٢٦)

ان كلمة (هل) و (ربما) هنا تعطي مدلولاً كبيراً بالنسبة للمتنبي ذلك انه متردد في القتال مع انه ما كان ليستعملها قبل ذلك في اقتحامه الحرب وكانه نسي ما كان يقوله سابقا او تناسى انه كان يعتبر الحرب والقتال من مهماته التي لايمكن التردد فيها .

وبلغ التشاؤم عنده في هذه الحقبة ان اعتبر المنجزات الانسانية ليست بذات قيمة تذكر ذلك ان الانسان لا بد فانٍ فما فائدة ما يبقيه ؟! ولهذا فهو يتساءل اين الذي بنى الهرمان ، واين قومه ! ان الكل فانون ...

أين الذي الهرمانِ من بنيانِهِ
ما قومه مايومه ما المصرعُ
تتخلف الآثارُ عن اصحابها
حيناً ويدركها الفناءُ فتتبعُ(٢٧)

وهذه نظرة جديدة لديه لم يكن يؤمن بها قبل ذلك ، ويبدو ان المتنبي قد بدأ يدرك نهايته لهذا اخذ يبرر هذه النهاية التي لم تحقق شيئاً في نظره ، فالتجأ الى تبرير هذه الانتكاسة الى ان الحياة ليست بذات قيمة فكل ما تعمله فيها ضائع وفان فما فائدته اذن ؟ !

فبعد ان كان يلوم الدنيا لانها تعيق العلماء والعظماء عن العمل اخذ يقول ما فائدة كل ذلك؟ وهذه نظرة يظهر فيها الاخفاق والسأم واضحاً جلياً ..

٤ ـ الحقبة الرابعة :

وهي الحقبة الممتدة من فراقه لكافور حتى وفاته . وفيها يظهر اثر الانتكاسات التي تعرض لها في الحقب الماضية . وبالرغم من ان المتنبي كان يشك في كافور صديقا مخلصاً إلا ان الصدمة كانت واضحة في شعره ذلك انه كان يطمح من خلال علاقته به الى تحقيق بعض المآرب التي هي بمثابة الجولة الاخيرة في تحقيق المعالي والآمال، ولهذا فإن خيبة امله منه كان معناها خيبة الجولة الاخيرة من تحقيق الآمال .. ولهذا فان اول رد فعل للاخفاق بعد انتهاء علاقته مع كافور هو هجاؤه له حيث هجاه بقصيدة مقذعة للغاية ، صب فيها غضبه على كافور وإن لم يكن هو السبب الحقيقي للاخفاق .. فافرغ من خلاله كل آلامه واخفاقه وانتكاسته وكرهه للدنيا والناس ، وسأمه وتشاؤمه ..

ولهذا فان هجاءه لكافور هو اثر من آثار الاخفاق عنده ..

ما كنتُ احسبني احيا إلى زمنٍ
يسيءُ بي فيه كلبٌ وهو محمودُ
جوعانُ يأكلُ من زادي ويمسكني
لكي يقال عظيمُ القدرِ مقصودُ(٢٨)

وفي هذه الحقبة التي اعقبت علاقته مع كافور لم يلتزم بسوى القوة ! وضاعت الآمال والطموحات التي بناها سابقا والتي كان يرجيها منذ ايام صباه وشبابه .

وبقيت نظرته الى الدنيا كما هي ،مقت شديد، وكره بالغ .. محملاً اياها كل ما عاناه من مصاعب وآلام ومشاكل ... وساء ظنه بأن يكون الانسان محسناً او ان يصنع جميلاً ... فالاحسان وصنع

(٢٥) شرح الديوان : ص٣٩٧ : ج٣
(٢٦) شرح الديوان : ص٢٧٨ : ج٤ راجع شرحه في نهاية البحث .
(٢٧) شرح الديوان : ص١٣ : ج٣
(٢٨) شرح الديوان : ص١٤٥/ج٣ .

الجميل يعجز عنه البشر ، فهو في هجائه لكافور يقول :

وذاك أنّ الفحول البيض عاجزة
عن الجميل فكيف الخصية السود(٢٩)

بل هو يتوصل الى نتيجة مهمة نبعت من تجربته وهي ان القوة انجع من القلم :

حتّى رجعت وأقلامي قوائل لي
المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به
فإنّما نحن للأسياف كالخدم(٣٠)

وهذه الحكمة هي نتيجة كل هذه الحياة التي عاشها المتنبي ليرى ان حياته يحكمها السيف . وليس هناك من اهمية للقلم ، وهنا يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار الحقبة الزمنية التي يمر بها والتي تميزت بالخلافات والحروب بين الامارات والدول.. فالغلبة للأقوى دائما . أضف الى ذلك تجربته الشخصية التي أرته امام عينيه ان لا فائدة من الشاعر او العالم ، بل الفائدة كل الفائدة من القائد والفارس المقاتل ..

ويبلغ السأم قمته في هذه الحقبة فلم يعد يهتم لما يؤديه طريقه ، أكان يؤدي الى الأذى ، او السلام ، أو الموت !!

وأيّ شئت يا طرقي فكوني
اذاةً أو نجاةً او هلاكا(٣١)

وقد يفسر البعض هذه النظرة على انها تدل على التحدي . ولكنها الى السأم أقرب منها الى التحدي .

وتمنى ان يكون عمره مع القدماء ذلك انهم قد سعدوا وهذه اشارة الى ان زمانه لا يقيم التقييم الحقيقي للانسان على حين كانوا قبل زمانه يقدرون الانسان حق قدره .

وقتٌ يضيعُ وعمرٌ ليت مدّته
في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرّهم وأتيناه على الهرم(٣٢)

وهو هنا يدرك ان عمره قد ضاع . وهل هناك أعظم من كارثة الشعور بضياع العمر ؟!

وتمنيه العيش مع القدماء هو نتيجة للانتكاسات التي تعرض لها خلال حياته ...

ويصل الى غاية السأم والتشاؤم والغربة حينما يتساءل بماذا نتعلل فلا اهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن !!

بم التعلّل لا اهلٌ ولا وطنٌ
ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكن(٣٣)

هذه الشكوى المتألمة لم تكن صادرة في يوم من الايام منه لولا تعرضه حقيقة لكارثة نفسية . واهم هذه الآلام هي (لا وطن) ذلك انه لا يحط الرحال بارض إلا وغادرها ، فلم يسعد في منطقة من المناطق التي حل بها على الدوام . ولهذا فان هذه الكلمة لم تأت عبثاً بل جاءت معبرة عن تجربة مرة عاناها الشاعر .

وتتبين مرارته وألمه حينما يقول لا تشك لأحد شكواك لان شكواك لا تجدي نفعا بل قد تجلب لك السوء :

ولا تشكنّ إلى خلقٍ فتشمته
شكوى الجريح الى الغربان والرخم(٣٤)

لقد اعتبر الشكوى نتيجة الضعف منذ صباه ولكن في هذا البيت مع اصراره على عدم الشكوى إلا انه يعبر بطريقة غير مباشرة عن نفسه فيمثلها بـ (شكوى الجريح) وهي ذات علاقة واضحة به شخصياً فهو يشعر بانه جريح ... ولكن لمن يشكو ؟ الى (الغربان والرخم) التي تتأهب لافتراسه . وهي نتيجة اسوأ من الاولى – اي من مجرد الشكوى – فهو اذن معرض للقتل في اية لحظة . ان هذا الشعور يدل على ان المتنبي قد سلم نهائياً بان الناس اعداء ، وهي نتيجة لاخفاقه في الحصول على ما يبغيه منهم ..

واعتبر هذه الحياة لغزاً من الالغاز المحيرة .. تخالف النّاسُ حتّى لا اتفاق لهم
إلاّ على شجبٍ والخلفُ في الشجبِ
فقيل تخلصُ نفسُ المرء سالمةً
وقيل تشركُ جسم المرء في العطبِ
ومن تفكّر في الدّنيا ومَنْهَجَتِهِ
اقامهُ الفكرُ بين العجز والتعب(٣٥)

والمتنبي يفكر في هذه الدنيا التي حيرته فما هي ؟ انه لا يجيب عن هذا السؤال لانه فعلا لم يتوصل فيه الى نتيجة .. وتتبين المسحة الفلسفية

(٢٩) شرح الديوان : ص١٤٨/ج٢ .
(٣٠) شرح الديوان : ص٢٩١/ج٤ .
(٣١) شرح الديوان : ص١٣٣ /ج٢ .
(٣٢) شرح الديوان : ص٢٩٥-٢٩٦/ج٤ – راجع شرحه في نهاية البحث .
(٣٣) شرح الديوان : ص٣٦٢/ج٤ .
(٣٤) شرح الديوان ص ٢٩٥ /ج٤ .
(٣٥) شرح الديوان : ص٢٢٤-٢٢٥/ج١ .

في عرضه للآراء في النفس البشرية وهي بالتالي نتيجة للتقلبات والاخفاقات التي مر بها خلال حياته من صعود وهبوط وسعاده وحزن وراحة وقلق ...

وفقد ثقته بالعلم ، ذلك ان الكل يموت فما فائدة العلم اذن . فالراعي البسيط يموت على جهله كموتة جالينوس ـ عظيم اطباء اليونان ـ على طبه . بل قد يزيد على جالينوس عمراً ... !!

يموتُ راعي الضأنِ في جهلهِ
موتةَ جالينوسَ في طبِّهِ
وربَّما زاد على عمرهِ
وزاد في الأمنِ على سربهِ(٣٦)

هذه النظرة الخطيرة التي يفكر بها المتنبي لم تأت عبثاً بل انها نتيجة اخفاقات متتالية وتشاؤم كبير من هذه الحياة . فماذا يعني ان جالينوس يموت وراعي الضأن يموت ايضاً . هذا يعني ان لا فائدة من الطب ، ومن ثم العلم بصورة عامة . ومن ثم كل ما يطمح الى تحقيقه الانسان من رقي وحضارة .

بل هو يرى ان الراعي قد يعمر اكثر !! وهذا يعني ان العلم والمعرفة ليست فقط لا فائدة منها بل وربما يكون الجاهل احسن حالاً من العالم واكبر عمراً(٣٧) ومن هذا يتبين انه قد فقد في هذه الحقبة كل الآمال والطموح ، والعلو ، لانه قد مارسها بتجربته الخاصة سنيناً طويلة فلم يحصل منها على اي شيء ...

وهذا يفسر لنا لماذا اخذ المتنبي في هذه الحقبة يدعو الى أن يستقبل الانسان دهره بكل سذاجة لان الموت هو عاقبة كل انسان فلا حاجة للتفكير فيه .

لا تلق دهرك إلا غير مكترثٍ
ما دام يصحب فيه روحَكَ البدنُ(٣٨)

وهذا رد فعل لما عاناه في شبابه من تفكير عميق وجهد كبير ، كلها لم تجد شيئاً ...

واصبحت حياته يلفها التشاؤم الساذج والتساؤل المحير . فالسرور غير دائم والحزن لا يرجع :

فما يدومُ سرورٍ ما سررت بهِ
ولا يردُّ عليك الفائتَ الحزَنُ(٣٩)

وما فائدة العشق ، ان العاشق انسان متسرع وعمله تافه ...

ممَّا أضرَّ بأهلِ العشقِ أنَّهمُ
هوَوا وما عرفوا الدُّنيا وما فطنوا
تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم
في إثرِ كلِّ قبيحٍ وجههُ حسنُ(٤٠)

وهنا يعكس وجهة نظر سيئة للغاية عن الحب والحبيب وهي نظرة متأتيه من عموم النظرة المتشائمة التي طبعت حياته كلها ..

وبعد ان كان يؤمن ايماناً قاطعاً بانه سيحقق كل مايريد وكل ما يطمح اليه اخذ يقول :

ماكلُّ ما يتمنَّى المرءُ يدركهُ
تجري الرِّياح بما لا تشتهي السفنُ(٤١)

ويعبر هذا البيت عما في داخله من نكسات وصدمات خلال حياته الماضية .

وسئم بالموت . وتساءل لماذا نحب ارواحنا؟ فهي من جو هذه الحياة ، واجسامنا من ترابها :

نحنُ بنو الموتى فما بالنا
نعافُ ما لابدَّ من شربهِ
تبخلُ أيدينا بأرواحنا
على زمانٍ هي من كسبهِ
فهذهِ الأرواحُ من جوِّهِ
وهذه الأجسامُ من تربهِ(٤٢)

وهنا نلحظ اولا دخول السمة الفلسفية في شعره وهي نتيجة طبيعية لازدياد خبرته ومعرفته في هذه الحياة ، والشيء الثاني التسليم بالموت بينما في الحقبة السابقة لها تمنى الموت . ومتمني الموت لا كالمسلم به فتمني الموت يعني ان الانسان في مرحلة الشعور بالانتكاسة والاخفاق .. اما التسليم به فمعناه ان الانتكاسات لم تعد تؤثر به لعظم الكارثة التي حطت به وان السأم قد بلغ منتهاه . ومن هنا نقدر عظم حجم الاخفاق والكارثة التي يمر بها في هذه الحقبة حتى انه لم يعد يشعر بالانتكاسات ...

---

(٣٦) شرح الديوان : ١ج/٢٣٧ =

(٣٧) كانت نظرة المتنبي قبل علاقته بسيف الدولة ان الحياة تصفو للجاهل دون العالم . كقوله :

تصفو الحياة لجاهل او غافل
عما مضى فيها وما يتوقع
[ص١٢/ج٢]

او قوله : ذوالعقل يشقى في النعيم بعقله
واخو الجهالة في السعادة ينعم
[ص٢٥١/ج٤]

(٣٨) شرح الديوان : ص٣٦٤/ج٤ .

(٣٩) شرح الديوان : ص٣٦٤/ج٤ .

(٤٠) شرح الديوان : ص٣٦٥/ج٤ .

(٤١) شرح الديوان : ص٣٦٦/ج٤ .

(٤٢) شرح الديوان : ص٢٣٦-٢٣٧/ج١ .